عن اطروحة المفكر الايراني عبد الكريم سروش

٢-٢

مهدي النجار

من أشياخنا الأسلاف كانوا يتحركون ضمن نظام فكري شامل يتحكم ضمنيا أو عميقا بفترة معرفية بأسرها هي معرفية الفكر الإسلامي الكلاسيكي (الفضاء العقلي القروسطي) التي ليست لها علاقة بفترتنا المعرفية الراهنة، فلا ينبغي أن نحملهم اكثر من طاقاتهم وفي نفس الوقت نحن غير ملزمين بتصوراتهم البدائية تلك لان الفضاء المعرفي الذي عاشوا به وتقنيات عصرهم المتواضعة لا تسمح لهم بأكثر من ذلك فعلى سبيل المثال اعتقد إنسان تلك الحقبة بان الأرض مركز الكون وان السماء مسرح واسع تمثل النجوم على خشبته دور الأبطال والمغامرين في قصص وأساطير من نسج خياله. ثم استخدم النجوم والأجرام السماوية كفنجان قهوة أو بلورة سحرية يقرا فيها البخت والطالع ويقرر مستقبل الملوك والأباطرة وحتى الشعوب،وكانت العلاقة بين الأرض والسماء حسب تصوراتهم مثل علاقة ارض البيت بسقفه ومنه تتدلى النجوم على هيئة مصابيح...هل يستوعب أسلافنا آنذاك الأفكار المعاصرة عن الكون والنظرات الجديدة إلى السماء، هل يستوعبون أن الشمس تستطيع ابتلاع أكثر من مليون كرة أرضية في جوفها وإنها مصدر الحياة على الأرض، وهي واحدة فقط من بلايين بلايين (ألبليون ألف مليون) نجوم الكون وان في الكون نجوما تستطيع ابتلاع ملايين وملايين من شمسنا...فأين يا ترى موقع وقيمة الأرض من هذا الكون العميق؟!... إن تقدم المعارف العلمية والوسائل الفلكية التي تعتمد أساسا على التعامل مع الضوء القادم من النجوم والأجرام السماوية وكذلك دراسة الموجات الراديوية والأشعة السينية وغيرها من الأشعة القادمة من الكون إضافة إلى استخدام المراقب الالكترونية المتطورة وإطلاق المركبات الفضائية الجبارة ووصول الإنسان سطح القمر، كل ذلك وغيرها من تجارب وخطوات علمية هائلة قلبت المفاهيم القروسطية وأحدثت قطيعة معرفية شاسعة بين تصورات الماضي وتصورات الأزمنة الحديثة!!. أصبح الجميع الآن –بما فيهم الدكتور سروش –مضطرين لان يقدموا الحجج على ما يقولون إما بواسطة البرهان والاستدلال وإما بواسطة استخراج التجربة المحسوسة أو (العيان بلغة ذلك الزمان) فالامتعاض وعدم الرضا من الأشياء القديمة وحدهما لايكفيان،

عبد الكريم سروش

وأما قبل ذلك أي في أزمنة الغزالي فما كانوا يعرفون هذه اللغة العقلانية والمنطقية القائمة على المحاجة والبرهان، وانه لمن الحكمة والرشد أن نقلع عن محاولة إعادة الاعتبار لمن وجهوا ضربة قاضية للعقل في الأزمان السالفة كالنموذج الغزالي الذي شارك بدور تأثيري كبير في تشكيل الذهنية العامة للجمهور واشرف على ترويج مخطط فكري يناهض العقل، وكان يدفعه إلى ذلك قرار سياسي من المؤسسة السياسية الحاقدة على الفكر الفلسفي فقد " استدعاه نظام الملك إلى بغداد للتدريس في المدرسة النظامية والأشراف على التعليم فيها فلبى الدعوة وقام بالمهمة التي وكلت إليه خير قيام

، وكان جل جهده موجها إلى إبطال مزاعم الفلاسفة " وفي كتابه الشهير " تهافت الفلاسفة " كان غرضه التشويش على مذاهب الفلاسفة لإزالة ماكان لهم من منزلة في نفوس الناس. ومن الملاحظ إن مشروع الغزالي ألهدمي للفلسفة لايخلو من بعد سياسي فالسلاجقة الكارهون للبحث الفلسفي قد وضعوه على قمة الهرم في أعلى مؤسساتهم التعليمية (نظامية بغداد ونظامية نيسابور). إن الغزالي وضع عقله وقلمه بخدمة السلطة السياسية ضد العقل وضد المشروع الفلسفي. وليس من الغريب أن يكون العصر الذي شهد خطاب الغزالي وأنصت إليه هو عصر الانهيار السياسي والتفكك الاجتماعي وسيطرة " العسكر " على شؤون الدولة وهو العصر الذي انتهى بسقوط بغداد والقضاء على الشكل الرمزي الأخير للدولة العباسية.

ثانيا: الواقع التاريخي وتجربة العرفانيين

إن الارتهان لتجارب العرفانيين الشخصية والانبهار بمستويات مكاشفاتهم ومواجيدهم يخرجنا عن قراءة الأشياء حسب واقعها التاريخي وفضائها الديني، فالاعتماد على مايرويه مولوي جلال الدين الرومي (٦٠٤هـ - ٦٢٧ هـ) حول تجربة المعراج النبوية يجعلنا نحلق بعيدا عن الواقع وتحليله وفحصه بدقة في حين إن الواقع هو الأصل ولا سبيل لإهداره، من واقع تكون الدين ومن لغته وثقافته صيغت مفاهيمه ومن خلال حركته بفاعلية البشر تتجدد دلالته، فالواقع أولا والواقع ثانيا والواقع أخيرا ومن دون ذلك تنشأ تصورات للأديان بلا ضفاف، أما عن واقعة المعراج فهي من الوقائع التي تخرج عن الواقع وتخرج عن نطاق التجارب البشرية، بمعنى أنها تجربة نبوية خالصة شأنها شأن الكثير من الوقائع أو (المسائل) الدينية مثل قصة أهل الكهف، لايمكن الدفاع عنها بطريقة الجدل الواقعي فهي غير خاضعة للإثبات التاريخي أو الحجج العلمية وبالتالي يعتمد تصديقها أولا وأخيرا على الإيمان وحده وهي مقبولة لدى المسلمين لأنها وردت في النص القرآني، فكيف يتسنى إخضاعها للتاريخية أو تسميتها بالتجربة البشرية التاريخية لان النبي بشر –كما يقول سروش –وتجربته بشرية والمحيطون به بشر مثله. وكيف يمكن جعل التجربة النبوية بتناول أصحاب المواجيد والخلجات الوجدانية؟ أي بسطها من المجال النبوي المتعالي إلى المجال البشري العادي لان الدكتور سروش يقول: " لقد انتهى اليوم عهد المهمة النبوية، إلا إن المجال لازال مفتوحا لبسط التجربة والاقتداء بذلك العظيم يستوجب مواصلة تجاربه الباطنية والاجتماعية والسياسية... واليوم يتحتم تبديل التدين إلى تجربة تهدف إلى تذليل المشكلات وإقناع الأرواح، وحل العقد وفتح الآفاق الرحبة " هذا التصور وهذه الدعوة إلى مواصلة التجربة النبوية يتقاربان كثيرا مع تصورات ودعوات المتصوفة في القرون الوسطى فمثلا الأولياء (أصحاب التجارب والكرامات) عند ابن عربي (٦٣٨ هـ -١٢٤١م) يأخذون شريعتهم من الله، مثلما أخذها النبي محمد فهم متساوون معه في هذه الناحية، ولكن ابن عربي يؤكد دائما أنهم على شريعة محمد لأنهم ورثته مهما يكن من أمر، " هم الذين تولاهم الله بنصرته في مقام مجاهدتهم الأعداء الأربعة: الهوى والنفس والدنيا والشيطان... " (الفتوحات المكية ج٢) فهم إذاً رجال الصوفية الذين يحاربون شهوات الدنيا بالنسك والتعبد والزهد في كل ماله علاقة بمطالب البدن، إن ابن عربي يكرر في أماكن كثيرة من كتبه الحديث الشريف الذي يقول إن الرسالة والنبوة قد انقطعتا فلا رسول بعدي ولانبي ويفهم ابن عربي من هذا القول إن الذي انقطع هو النبوة الشرعية والرسالة الشرعية فلن يأتي نبي ولارسول بشرع يخالف شرع محمد. أما النبوة العامة (التجربة النبوية حسب الدكتور سروش) فلم تنقطع . وإنما مستمرة (بسط التجربة) حتى يوم القيامة. (الفتوحات ج٢ ص ٩٠) وفي مواقفه هذه يستند ابن عربي إلى نصوص شرعية وأحداث تاريخية ويحاول أن يضفي على موقفة مسحة من الشرعية الدينية لكنه في الحقيقة يخالف النصوص باسم النصوص نفسها فهو حين يتكلم عن مرتبة " الأفراد" الذين يعلمون من الله مباشرة علوما لايعلمها الرسل والأنبياء (يسميهم الغزالي أهل المعارف المتعالية على العقل) ويواصل ابن عربي كلامه ويقول،إن ذلك ممكن وغير متعارض مع الشرع، فالنبي محمد وصف الله بصفات لو وصف بها غيره من الناس لقلنا انه كافر، ومع ذلك قبلت هذه الأوصاف بحق الله لأنها أتت على لسان الرسول الذي لا ينطق عن الهوى بل كلامه وحي من السماء، فلماذا لانقول بناء على ذلك إن القدرة الإلهية واسعة وتستطيع أن تعطي الولي مثل ماأعطت للنبي من علوم الأسرار؟

ويرى الدكتور سروش (كما يرى الغزالي) إن أصحاب التجارب العرفانية المشابهة لتجارب الأنبياء، والذين أدركوا معنى النبوة وجربوا صدق هذه الأقوال هم وحدهم يعون مصدر هذه الأقوال ويعلمون منزلة القائل ومرتبته. وعليه فطريق معرفة النبوة والنبي مفتوح أمام الجميع. والغريب أن الرسول ذاته أبقى هذا الطريق مفتوحا أمام الآخرين.

تلكم الآراء والاجتهادات والتصورات لمسالة النبوة والتجربة النبوية جميعها تتقاطع مع اثنين من القضايا:

القضية الأولى: الإجماع الإسلامي أو التصور التقليدي ننقل هنا الملخص الذي قدمه خرمشاهي (محاور الدكتور سروش في نفس العدد من المجلة) بحذافيره عن الإجماع الإسلامي أو الفهم الشائع للنبوة الذي يحمله عامه المسلمين لفائدته في توضيح مقصدنا، يقول السيد خرمشاهي:(في القران، وهو أهم ماجاء به النبي، يقرر الباري إن أشخاصا ينتخبون للنبوة، فالله تعالى يشرف عليهم ويسددهم وينقذهم من المهالك والأخطار،ويربيهم ويؤدبهم ويبلغ بهم مرتبه حمل الرسالة. ومحمد بن عبد الله حظي بتربيه إلهية خاصة لينال مقام النبوة وبالتالي بلغ الذروة التي نزل عليها معها ملك الوحي. وكما يخبرنا التاريخ فقد هبط الملك في زمان ومكان معينين على الرسول وأدرك الرسول بذلك انه اختير للنبوة.

تداول الرسول في هذا الشأن مع خديجة وعلي بن أبي طالب،وتجذر مشروعه تدريجيا،وكان الملك يحمل رسالات الله إلى رسول الإسلام تدريجيا،وقد دونت هذه الرسائل لتشكل القران الكريم.

هذا هو الفهم الشائع للنبوة الذي يحمله عامه المسلمين.

وهو ماينبئنا به التاريخ والتراث و الروايات المتواترة " بعدما ينتهي السيد خرمشاهي من هذا التلخيص يوضح: " لم يقل قائل إن الوحي لون من التجربة الدينية،والنبي رجل تأتى له شهود الهي فأصبح كلامه كلام الله. هذه طروحات غير صحيحة.ماقاله الله يقوله النبي للناس لاما يقوله النبي هو مايقوله الله " وفي موقع آخر يعترض السيد خرمشاهي على الدكتور سروش قائلا: لكنك كتبت في بحث (بسط التجربة النبوية) إن الوحي يتبع النبي، وليس النبي هو الذي يتبع الوحي، وكتبت إن الرسول هو الذي يستنزل جبرائيل وان الوحي نوع من التجربة الدينية. وهذه آراء لاتنسجم مع آيات قرآنية محكمة.

القضية الثانية: التصور التاريخي

في التصور التاريخي يمثل النبي القمة التي بدء منها يتجلى الله مباشرة بدأ يتحدث عن نفسه ويملي إرادته والنبي يعتمد على الظاهرة المعقدة "للوحي " ويحرك في قومه الأمل التبشيري بالخلاص والشريعة التي جاء بها الوحي إنما تولدت بشكل تدريجي لتلبية حاجات المجتمع الإسلامي في القرون الهجرية الأولى، ومن المعروف إن ذلك المجتمع الذي خاطبه الوحي كان مجتمعا قبليا عبوديا تعتمد العلاقات فيه على هذين البعدين ولابد من الإشارة بان النبي كانت له مكانة نفسية ومعرفية مختلفة عن كل أنواع البشر الآخرين. فهو ملهم ورؤيوي وحكيم وصاحب خيال مبدع وقائد وروح كبيرة قادرة على سبر المجاهيل واختراق حدود المعرفة السائدة بواسطة الإلهام المستمر الذي يخصه الله به. وبالتالي فهو من الرجال العظام الذين لايظهرون كل يوم أو عندما نريد ذلك، أنهم لايظهرون الاعندما تنضج الظروف اللازمة لظهورهم في الواقع الموضوعي ذاته أنهم يظهرون لكي يلبوا حاجة تاريخية قصوى.

ثالثا: المثال التبسيطي

لكي يقرب الدكتور سروش وجهة نظره في مسالة النبوة وكيفية بسطها إلى عقول قرائه أو مستمعيه يأتي بمثال تبسيطي محبب إلى نفسه وهو علاقة المعلم بالطلاب، ويفترض بان دخول النبي إلى الوسط الاجتماعي كان بمثابة دخول معلم أو أستاذ إلى حلقة دراسية ويعبر عن هذه الأصرة بين المعلم والطلاب بالأصرة الجدلية أو العلاقة التفاعلية التبادلية، حين يأتي الأستاذ إلى طلابه فهو يعلم بشكل إجمالي بالنقاط والموضوعات التي يعتزم طرحها على الطلبة ويمكن للأستاذ أن يحدد هذه المرحلة من القضية ويقدرها ويعد لها... يتابع الأستاذ الماهر (وهنا المقصود النبي) درسه دون أن يسلم زمام العملية التدريسية إلى الصدفة أو احتمالات التشويه والتحريف من خلال إشرافه على التلاميذ وسيطرته الكاملة على الدرس فيولي اهتماما لما يطرأ على مسيرة التلاميذ من أخطاء ويطالبهم بان لا يظلوا مجرد مستمعين متفرجين، ليس هذا وحسب بل هو يدفعهم ويقحمهم كي يتولى الطرفان معا مواصلة الدورة التدريسية. إن هذا المثال التبسيطي والمدرسي يحمل صبغة تربوية وأخلاقية لاعلاقة لها بفحص وتحليل الظاهرة الدينية أو النبوية، وإذا كان من الممكن تطبيق مثل هذه الآلية الضيقة على العلاقة بين المعلم والطلاب فانه لايمكن تطبيقها على مسائل كبيرة مثل الدين والنبوة في علاقتهما البناء الاقتصادية وإطاراته الثقافية والسياسية ولكن لو سلمنا بانطباق مثل هذه العلاقة على مسالة النبوة فان أسئلة ومداخلات كثيرة ستقفز أمامنا، نترك توضيحها للدكتور سروش نفسه لعله يفيدنا فيها فيما إذا واصل بضعة تلاميذ درسهم ونالوا درجات تعليمية راقية وتفوقوا على أستاذهم وخرجوا من نطاق تلك " الدورة التدريسية " أي إن تلك الدورة التدريسية " أصبحت بالنسبة للتلاميذ مجرد مرحلة تعليمية تاريخية قد انقضت، أليس الدكتور سروش نفسه يعتبر أستاذه في التعليم الابتدائي أو الثانوي مجرد تراث يتذكره أحيانا أو لايتذكره؟ وهنا نسال كم من الأساتذة شاخوا وأصبحت دروسهم بالية وعائقا في تطور التلاميذ وتطلعهم إلى المستقبل؟ لم يكن نبي الإسلام العظيم على هذه الشاكلة من العلاقة الميكانيكية بينه وبين أمته انه " نبي " وفق مرتكزات الخطاب الديني التقليدي و المعاصر له خصوصيته الرسالية المتعالية، فهو حامل وحي الهي لاتجوز مناقشته أو مجادلته فيما يبلغ أو يأمر، وتعتبر سلوكياته " أسوة حسنة " تستبعد الخطأ والاعوجاج ولابد أن نلاحظ بان طاعة الله ورسوله تمثل نداء ملحاً ومتكرراً يخترق الخطاب القرآني من أوله لآخره.

قد تساهم ملاحظاتنا تلك حول بحث " بسط التجربة النبوية " من تصعيد حركة اختراقات الخطاب الديني للاسيجة الانغلاقية والتحجرية، إنما يعود كل الفضل بذلك لما أثارته أفكار الدكتور سروش وهو يجتهد لإخراج العقل الديني من حالته النصية التقليدية إلى حالة العقل البحاث المتحرر من المعارف الخاطئة والآليات البائدة، لان الذي لم يخرج من الفضاء العقلي القروسطي ويدخل مناخ الحداثة لايعرف معنى مناهضة حق " امتلاك الحقيقة المطلقة " و" التاريخية " و " التعددية " و" حق الاختلاف "، ولايعترف إلا باليقين الذهني والحسم الفكري " القطعي " ويهدر البعد التاريخي للنصوص والأحداث ويتجاهله، ويتجلى ذلك في البكاء على الماضي الجميل، يستوي عنده العصر الذهبي للخلافة الرشيدة وعصر الخلافة التركية العثمانية، ولكن لكي تكون الخطابات الدينية جديدة وحديثة فعلاً عليها كما يعبر محمد اركون: " أن تكشف عن حقيقة أهداف الأديان وعن وظائفها التاريخية وعن منجزاتها الثقافية ومكانتها التي لم تستطع أي نزعة إنسية حديثة أن تملأ الفراغ الذي خلفته حتى الآن بشكل عام " بمعنى إن الخطابات الدينية لكي تكون معاصرة وتندرج في مسار الحداثة ينبغي أن لا تظل بوعيها التقليدي سابحة هنيئاً مريئاً في الزمان الأسطوري والجغرافية العجائبية وتخلط بين الواقعي والخيالي بكل سهولة دون أن تشعر بأي حرج أو مشكلة. رغم ملاحظاتنا تلك واختلاف بعض وجهات النظر فان ما لمسناه في بحث الدكتور سروش هو انعتاقه من اسيجة التقليد وخوضه البحث بنمط شجاع من التفكير العقلي يأخذنا فيه إلى وسط ديني نشم به نسمات الحرية والتسامح ويحثنا على عدم تحميل الدين أعباء ثقيلة تؤدي إلى خطر إقصائه. حيث يقول " لن نسدي خدمة إلى الدين لوقلنا بأننا سنعمر الدنيا ونبني العالم من خلال الدين وبواسطته، وأننا سنستخرج من صميم التعاليم الدينية شتى ما يتعلق بالحكم والسياسة والاقتصاد " لذا فالمثقف الديني (والرأي مازال للدكتور سروش) هو من يمارس قراءة الدين خارج الدائرة الدينية ويتحدث في شؤون الدين لكنه لايرتزق بالدين، بل يحمل هموم إحيائه وإصلاحه.

رسالة الكوت الثقافية

ادباء واسط يحتفون بالناقد د.فاضل عبود التميمي

د.علي عبد الامير صالح

احتفى ادباء وكتاب محافظة واسط بالناقد والاكاديمي الدكتور فاضل عبود التميمي لمناسبة صدور كتابيه النقديين ((جماليات المقالة عند الدكتور علي جواد الطاهر))، و((بواكير محيي الدين زنكنه القصصية- دراسة ونصوص)). كلا الكتابين صدر في النصف الاول من هذه السنة ٢٠٠٧،الاول عن دار الشؤون الثقافية العامة ببغداد، والثاني عن دار سردم في السليمانية.

ويأتي هذا التكريم تثمينا للنشاط المتميز الذي يقوم به الدكتور فاضل التميمي بوصفه اديبا مثابرا واكاديميا ناجحا، بدأ مسيرته الأدبية خلال دراسته الجامعية في منتصف عقد السبعينيات من القرن الماضي، وما يزال مستمرا في الكتابة والنشر والتدريس والاشراف على الرسائل الجامعية ومناقشتها في اكثر من جامعة عراقية. وفي بداية الامسية تحدث كاتب هذه السطور قائلا ان الدكتور فاضل من أبناء جيله وكلاهما ولد في السنة ذاتها، وتخرجا معا في جامعة بغداد، وكلاهما بدأ النشر في منتصف السبعينيات.

ثم تحدث عن عشقه لقريته (بابلان) التي تبعد نحو عشرين كيلو مترا عن بعقوبة ولم يغادرها الا بعد ان تجاوز سنه الخامسة والاربعين. اذ قال)): حين كان فاضل يؤم بعقوبة ويرى خريسان قلب المدينة، وهويتها السابحة في فضاء الزمان لم تكن تسبح في فضاء ذاكرته سوى الكلمات العربية التي عشقها الى حد الوجد.وفي ما كان يرى بعقوبة المحتشدة بالبشر والابنية والمؤسسات الحكومية،كان ذهنه منصرفا الى اعماق اللغة، حيث ينفتح النص بلا ظلال، او دوال، او مداليل ثوان كما عبر هو.)) واضاف قائلا : ((ان فاضل التميمي هو واحد من المبدعين الذين يمنحون ليس حياتهم حسب بل حتى حياتنا معنى، ومستقبلنا توهجا،وشبابنا القا.. هم وحدهم الذين يهبون ذاكرتنا طراوة، وفجرنا الذي لم يبزغ بعد ندى، وايامنا الكالحات نورا سماويا.))

د.فاضل عبود التميمي

وبعدها استعرض القاص اسماعيل سكران ابراهيم رئيس اتحاد ادباء محافظة واسط اهم المحطات في حياة الناقد فاضل التميمي ومنها نيله شهادتي الماجستير ١٩٨٩ والدكتوراه سنة ..١٩٩٥وكتابته لثمانية عشر بحثا اكاديميا واشرافه على عشر رسائل جامعية كلها في البلاغة أو الادب الحديث. ومشاركته في ثمانية مؤتمرات علمية اكاديمية في الجامعات العراقية. وترأسه تحرير مجلة (اليرموك) الاكاديمية في ديالى بين سنتي ٢٠٠٠-٢٠٠٣ فضلا عن اسهامه في عقد الندوات الأدبية مع زملائه الأدباء في ديالى عن الادباء العراقيين المعاصرين ومنهم عبد الخالق الركابي، محيي الدين زنكنه،سعد محمد رحيم،واحمد خلف.

ومن ثم اعتلى الناقد المحتفى به المنصة وتحدث قائلا انه سعيد بهذه الامسية التكريمية. وان هذا التقدير سوف يدفعه حتما لمزيد من العطاء خدمة للادب العراقي..وقال ان كتابه ((جماليات المقالة...)) يأتي بوصفه لمسة وفاء لأستاذه الدكتور علي جواد الطاهر الذي تتلمذ على يده.. كما قال انه منذ بداية مسيرته الادبية كان يخرج عن اسوار الجامعة ويطالع كل ما يقع بيده من كتابات سردية ونقدية حديثة،وخلال دراسته الجامعية كان يؤم صالات المسارح ودور السينما التي افتقدها في قريته (بابلان).. كما تحدث عن راهن الثقافة العراقية واشار الى طغيان الكتابة القصصية و الروائية وبروز اسماء واعدة ومهمة في هذا الميدان.. كما لفت الأنتباه الى بروز ظاهرة أدب المنفى بعد التغيير في سنة ٢٠٠٣، فكثير من الادباء والشعراء ممن عاشوا في المنفى لم تكن كتبهم تصل الى العراق..وكان معظم العراقيين يجهلون ابداعاتهم الشعرية والروائية والمسرحية. واكد ان حصول الادباء العراقيين في سنوات الحصار وبعدها على الجوائز يؤكد اهمية منجزاتهم واصالتها وحداثتها..وفي الختام قال انني اصنف نفسي ضمن الأكاديميين الجدد.. هؤلاء هم من حملة الشهادات العليا الذين انفتحوا على المناهج النقدية الجديدة والأدب المعاصر ولم يلتفتوا الى التقاليد الصارمة التي يفرضها المنهج الاكاديمي.. وأهم ملامح هؤلاء الأكاديميين المزاوجة بين التراث والمعاصرة، العناية بالنثر والشعر على قدم المساواة، الالتفات الى الأدباء المهمشين والظواهر المغيبة او المسكوت عنها. فضلا عن دراسة الأدب الحديث دراسة جادة،ودراسة الأدب القديم على وفق مناهج نقدية حديثة. وفي نهاية الامسية قدم القاص اسماعيل سكران ابراهيم باسم ادباء محافظة واسط شهادة تقديرية للناقد والأكاديمي الذي اضطرته الظروف الامنية السيئة لمغادرة مدينته بعقوبة والمجيء الى الكوت ليواصل مسيرته الاكاديمية في كلية التربية بجامعة واسط،ويشارك زملاءه الأدباء نشاطاتهم ومنها ترأسه الجلسة النقدية في مهرجان المتنبي السادس الذي عقد في اواخر اذار (مارس) ٢٠٠٧، وقراءاته لنتاجاتهم الأدبية وابداء ملاحظاته واقتراحاته.

نساء وراء فيرجينيا وولف

مراجعة لكتاب اليسون لايت (قلب الخادمات المنزليات المخبأ)

ترجمة وإعداد: محمد حبيب

كانت الخدمة المنزلية هي الوظيفة الوحيدة الأكثر رواجاً للنساء البريطانيات خلال النصف الأول من القرن العشرين.إذ كانت غالبية العائلات المتوسطة تملك خادمة منزلية أو أكثر. وكان معظمهن يأتين من الريف من عائلات مدقعة الفقر. غير أن ظروف العمل شديدة التباين التي كن يعشنها، حيث كان التفاوت الأساسي في علاقة الخادمة- المديرة (كان ذلك من عمل رئيسة خدم المنزل)، وصدمة مغادرة عائلاتهن تسببت بمحن عميقة جداً للكثير من تلك الخادمات.

كتبت أليسون لايت " عندما نظرت وينفيرد فولي، ذات الأربعة عشر ربيعاً، إلى الوراء إلى يوم غادرت قريتها المنجمية في جلوسيسترشاير من أجل العمل في لندن، شعرت أنها قد قُطعت نصفين."

كانت فيرجينيا وولف كاتبة من لا يملكون عزلتهم المنتجة- غرفتهم الخاصة. فقد حاولت كامرأة تقدمية مُستغلةً الوسائل جهدها للمصالحة بين رغبتها في العيش العفوي الحر وبين الباعث الرجعي للتنازل عن كل مسؤوليتها عن نفسها. فهي قد ترعرعت في أسرة كبيرة لم يقل عدد النساء الخادمات فيها عن سبع، وبناء عليه يمكن للمرء القول أنها ما كانت لتشعر بالفرق.

ولن تعيش لحظة واحدة بعد بلوغها سن الرشد بدون شكل من أشكال "المساعدة" المنزلية، والكفاح ضد " عقل- الخادمة- الجبان الحقود" الذي بقي طوال حياتها يؤازرها حيناً ويسخطها حيناً آخر. وكان إغضاب خادماتها أسهل عليها من قبول حقيقة أنها تعيش معتمدة على الآخرين.

لقد أصبحت مذكرات وولف مخزن أفكارها الأكثر وضاعة تجاه خادمتها. فقد رأت في ثورات غضب خادمتها، نيلي بوكسال، الأطول إقامة معها " الطبيعة البشرية عارية"، وكأنها قد اقتلعتها للتو من حديقة حيوانات، ولم تستطع البتة أن تقنع نفسها أنه ورغم جدارتهن بظروف أفضل، فلم يستطعن أن يعشن حياة داخلية غنية وفضولية كحياتها. وعندما حاولت أن تدخل في رواياتها شخصيات مرسومة على نمط الخادمات، كانت تعرف أنهن سيبدأن كشخصيات كاملة وينتهين كقطعة ورق اللعب.

في الوقت الذي حاولت فيه وولف أن تتهرب من دورها كمديرة ببساطة بتجنب خادماتها كلما أمكن، حتى أن إذعان بعض الخادمات كان يغيظها أكثر من تمردهن، فقد ناقشت كلا الوجهين في مذكراتها كأمارة على غباء الخدم الموروث.

حتى أنها وبسبب ضيقها من النقاش العاطفي للحقوق والواجبات، حاولت أن تكتب أوامرها في مدونة خاصة لتتجنب تبليغها مباشرة للخدم. وعندما كان يفشل ذلك- كما فشلت محاولاتها المتكررة للتخلص من بوكسال وخدم آخرين وترسيخ حياة مستقلة حقيقة- كانت تشعر بالغم وأنها عالة على غيرها.

فيما بعد حاولت أن تخوض تجربة الخدمة الذاتية. فقد تعلمت الطبخ تدريجياً، حتى أنها راحت " تتباهى كالأطفال" بأنها نجحت في إعداد فطيرة بطاطا وبازلاء. لكن تمكنها من إعداد الفطائر كان أفضل بكثير مما كان يستطيعه زوجها.

فقد لاحظت فيرجينا وولف أنه، ولكونه سليل الطبقة الوسطى لا سليل الطبقة المترفة، كان قليل الاحتشام حيال طرد الخدم أو إذلالهم (في حين ورغم أنها كانت تحمل الانفعالات نفسها حيالهم، كانت تنزع إلى التعبير لهم عن ذلك سراً وبالكتابة). فهي، على الأقل، جاهدت لعقلنة مشاعرها تجاه من هم في خدمتها، وحاولت أن تمزج بين الإثم والرأي في شيء أشبه بالتضامن.

كان ليونارد ينظم اجتماعات فابية في بيتهم في سوسسيكس. وقد لاحظت فيرجينيا ميل العمال المحليين إلى البقاء صامتين بينما كان العمال اللندنيين أكثر ميلاً للمشاكسة فيما بينهم، وأخذ زمام المبادرة.كما شجع ازدهار حركة العمل العمال الآخرين على رفع أصواتهم في أماكن أخرى.

وقد انتقد بعض الدارسين وبقسوة رسالة فيرجينيا وولف ثلاثة جنيهات (١٩٣٨) حول حقوق النساء في العمل، وأخذوا عليها افتراضها أن " بنات الرجال المتعلمين كن قادرات على الاستفادة من العمل النافع والقضاء على النظام الأبوي. وقد اعتبرها البعض ناجمة عن (خصوصية وضعها السياسي).

وحيث تتكلم وولف تجريديا عن " الآلة الأبوية العظيمة" التي منعت نساء طبقتها من العمل، تصف سميث " 'المرض العضال' بأنه حُكم عليها بالعمل عندما كانت ترغب في متابعة تعليمها".

لكن كان بوسع الخدم أن يلهمن أسيادهم الإخلاص كما هو العكس صحيح. فعندما أصيبت لوي إيفريست بالسرطان وعانت منه سنوات عديدة بعد وفاة فيرجينيا وولف ,١٩٤١ كان ليوناردو يزورها يومياً. بالمقابل، لازمته يوماً بيوم حتى النهاية عندما أصيب بالشلل جراء جلطة دماغية.

فالسيدة وولف والخادمات هن خير خلف لفكرة جون كاري في كتابه المفكرون والعامة.

إن لايت شديدة الحذر في تحليلها للظروف التي أفضت إلى التقسيم الاصطناعي بين وولف وخدمها، لكنها لا تتوانى عن الحكم عندما تجد دليلاً واضحاً على قسوة حقيقية. إنها لصورة إكراهية حقاً تلك التي تصور الكيفية التي حُبست فيها النساء الثريات والخادمات في جو من التكافل المميت، إضافة إلى أنها تحذير من عدم المساواة الاجتماعية.

ربما تكون مذكرات وولف هي الإرث الأغلى الذي خلفته لنا .

فيرجينيا وولف